ذكريات الربل أيام زمان

(العربنجي) ابو هيلة ينقل نوري سعيد.. وخليل الرفاعي!

عباس الخفاجي

★ منذ متى وانت تعمل بهذه المهنة يا عم عيدان؟

ـ ابتسم وهو يروي ذكريات طفولته مع والده الذي كان يصنع (الربلات) اضافة إلى نوع آخر من العربات المكشوفة التي كانت تنقل الغلات الزراعية من خضر وفاكهة وكانت البداية عام ١٩٤٠ بعد ان ورثها عن والده متنقلاً بين ازقة بغداد من شارع الرشيد حتى الكاظمية حيث كان يوجد مأوى لتلك الربلات هو بمثابة محطة انطلاق واستقبال في المناطق التي تنتشر فيها عربات النقل (الربلات) هي منطقة النزيزة والشيخ معروف.

★ وعن سبب اختياره لهذه المهنة؟

ـ العربنجي عيدان عشق ركوب الخيول.. منذ نعومة اظفاره وتعود عليها ثم اصبحت بعد ذلك مهنته الرئيسة التي يعتاش منها، اضافة إلى احساسه بالقرب من الناس اثناء نقلهم والتحادث معهم وخدمتهم.

★ مصدر حصولك على الاخشاب اللازمة لصناعة العربات؟

ـ الخشب يمكن الحصول عليه من نجارين متخصصين ببيع خشب (التوت) يقومون بتقطيع هذ النوع من الخشب بطريقة (واسيت وبرماغ) لتهيئة المساطر الخشبية والزوايا اللازمة لصناعة العربة حسب نوعيتها.. ولم تفقد هذه الصناعة ميزتها رغم التقدم التكنولوجي الذي حصل في مجال صناعة الاخشاب وما تغير سوى اللون حيث تطلى بالالوان الزاهية التي يرغب فيها صاحب العربة.. اضافة إلى تزيين العربة بالعديد من اشكال السروج وهي المنقوشات التي اختص بها ابناء البادية كذلك تضاف اشكال أخرى من الجلد أو المطاط.. وفي السنوات اللاحقة اضيفت إلى العربة اشكال أخرى من اكسسوارات. اما الفوانيس التي تنصب إلى جانبي مكان جلوس (العربنجي) فأنها تصنع بشكل فلكلوري جميل في سوق الصفارين وبأشكال ملونة مختلفة.

★ كم كانت تكلفكم صناعة العربة الواحدة في ذلك الوقت؟

ـ كان سعر العربة آنذاك لا يتجاوز (٤٠) ديناراً وهي الكلفة بدون حصان الذي كان سعره بحدود (٥٠) ديناراً.

أما اليوم فان العربة الواحدة تكلف ما يقرب من (٤٠٠) ألف واصبح سعرا لحصان لوحده بحدود (٧٥٠) ألف دينار فانظر كيف تغير الزمن يا ولدي.

★ من هي الشخصيات التي استقلت العربة؟

ـ بعد حسرة قال: عربتي نقلت بعض الشخصيات البارزة وعوائلهم من مناطق سكنهم الى احياء أخرى في بغداد كعوائل رؤساء وزارات مثل توفيق السويدي، ونوري سعيد وفاضل الجمالي.. ومن الفنانين القبنجي، وناظم الغزالي، وعزيز علي، ونقلت بعربتي زواج الفنان خليل الرفاعي الى سينما (روكسي) وغيرهم.

وعندما كانت عائلة نوري السعيد ترغب في القيام بنزهة في شوارع بغداد من منطقة الكرادة الى شارع الرشيد كان الحارس الخاص يجلس الى جانبي اثناء تجوالنا مما جعل افراد شرطة المرور في الشوارع التي تمر فيها عربتي يميزونها ويفسحون لها السير.

★ ماذا تعني كلمة (ابو هيلة) يا عم عيدان؟

ـ فهقه الجميع من حولي حال سماعهم هذه العبارة ثم قال: لا باس عليك فان كلمة (ابو هيلة) جاءت على لسان المثل يوسف العاني في احد افلامه حيث اطلقها على احد الحوذيين البغداديين ضمن احداث الفيلم ومن ذلك الحين اعتاد الناس على اطلاق كلمة (ابو هيلة) على العربنجي الذي يقود عربة الخيل.

وجدت نفسي أقف أمام رجل ناهز عمر السبعين عاما، جالساً فوق عربته التي يجرها الحصان (الربل) يدعى عيدان عجيل، ثم تحلق حولي بعض زملاء مهنة ودار بيننا حوار شيق، بادرت الرجل بسؤال:

صور ضائعة من بغداد القديمة

القسم الثاني

فؤاد طه محمد

نقلنا في القسم الاول من هذا الموضوع صور شخصيات ذهبت، وأماكن اندثرت، ومناسبات بغدادية ضاعت بمضي الايام، ونحن نستكمل توصيف هذه الصور في هذا القسم.

٢٦ـ الزفة: انقرضت الزفة الشعبية أو كادت في احياء بغداد، وضاع ما كان يصنعه الناس من تشابيه (حسن خيون) ولعابة الزرع وغيرهما واختفت تقريباً صورة السراديج وهم يحيطون بالعريس ما بين الجامع بعد صلاة العشاء وبيت الزوجية السعيد، اما بالنسبة لحسن خيون فهو مظلوم، لقد ثار على السلطة العثمانية فعمل منه البغداديون لعابة يرقصونها في الافراح والليالي الملاح.

قالوا: مثل الحرش البلزفة، وزفة ام سلاح، ومبارك عرسك كال الليلة ادخل، وسمعوا العريس كالت الخنفسانة زفوني.

٢٧ـ الزورخانة: اختفت وذهبت معها اصوات المنشدين حول الجفرة من امثال عباس كبير ومهدي المرشد وآخر زورخانة في الكرخ كانت لبيت ايوب اليتيم في محلة الشيخ بشار وانقطع اثرها وخبرها كاصحابها.

٢٨ـ الساعي: وكان يعرف بالقطر: وهم سعاة على الاقدام من بقايا التتار في العراق عرفوا بسعة الخطوات وسرعة العدو كانوا يتقاسمون الطرق بين المدن إلى مراحل واشتهرت بهم محلة الطاطران. قيل فيهم:

طش الخبر، جوي ططر، أي متتابعين سراعاً.

٢٩ السقاء: بعد تعميم مشاريع إسالة الماء لم تعد هناك حاجة للسقاء لقد كان يحمل قربته ويدور بها على البيوت من الصباح إلى المساء يملأ حباب الماء ويسد حاجتها إليه. وكان بعضهم يستخدم الحمير لذلك، وفي بغداد دربونة السقاقي وعقد السقاقي، يجري الحساب بينهم وبين أهل البيت بالخرز أو الحصى، قالت الامثال: كالوله للسقا رشها البغداد، غركها.

أبرد من ط.. السقا

دقة بدقة وان زدنا زاد السقا

٣٠ ـ السيساني: هو العطار الجوال، يحمل متاعه على ظهر حماره ومهنته من المهن التي لا يحبذها ابناء العشائر لذلك يفرضون تزويج بناتهم منه لتفاهة عمله وفق العرف الاقطاعي البائد.

٣١ـ شلغم الطمة: ويتم شيه برماد الطمة في الآتون بعد وضعه جانباً حيث يسهر صاحبه على مراقبته ثم يعمد إلى جمعه وحمله في سلة مغطاة بغطاء سميك، قيل فيه: لو فاتك الشلغم اتمرغل بترابه أو يتمرغل برماد الطمة.

٣٢ـ صندوق الولايات: مع انتشار الاذاعة والصور المرئية والسينما اختفى صندوق الدنيا ولم يعد الناس يسمعون صوت صاحبه: باوع بعينك يا سلام

عنتر وعبله للامام

فها هو يحمله على ظهره وينصبه على منصة من خشب ويدير صوره بيده والصغار يحصرون اعينهم باعين الصندوق ليتمتعوا بتلك الصور الروائع لقاء فلاسين معدودة.

٣٣ـ طماس البير: كان يتجول بالاطراف رافعاً صوته بين البيوت فيدعوه اهل هذا البيت أو ذاك ليستخرج لهم ما سقط واستقر في قاع البئر من قدر أو أناء أو طاسة أو غيرها، وهو يعمد إلى الكلاليب التي يحملها معه لهذا الغرض، اما إذا كان الشيء الساقط ثقيلاً فهو مضطر إلى استخدام (شيخ الجناكيل) لاخراجه وتسليمه إلى اهل البيت، وكثيراً ما كانت تسقط القطط في الآبار.

٣٤ـ الفوالة: أو ام الطش: تدور متغنية بصوتها الاغن طشة خرزة.. خيرة تصيب.. يا بنات هذا النصيب.

خيرة تصدك ما تخيب. فتدوعها البنت التي بارت وكسدت بضاعتها لحل عقدتها وتدعوها الضرة لوضع حد لاندفاع زوجها نحو ضرتها وتدعوها العمة التي لا تعرف كيف الخلاص من كنتها.. وصورتها تمثل الجهل وانحسار المد الثقافي آنذاك.

٣٥ـ القرداني (ابو الشواذي): كان يتجول في الدروب الفسيحة ومن خلفه قرده الذي رباه وعلمه اداء الحركات فهو يدق له بالدنبك ويراقصه ويعلمه كيف تنام العروس وكيف تصحو العجوز وعن طريقه يلتقط ما في جيوب الناس من عانات وعشرات وهم فرحون.

٣٦ـ القضخون: اختفى اثر القضخون وانطمرت معه عشرات القصص والحكايات من اسمار بغداد وسهرات البغداديين في المقاهي أو المجالس المعروفة أو حول نار الشتاء أو على السطوح في الصيف. آخر القصخونيه (قمبور) وهو رزوقي الاسكافي رحمه الله.

٣٧ - القفجي: كان للقفف بين شرائع الماء في الكرخ والرصافة أثر بعيد في حياة بغداد الاجتماعية قالوا:

طلع من زنبيل وكع بكفه

كفه وليل ومطر، لاجتماع أسباب المتاعب.

٣٨ ـ الكجاوة: هي الهودج، ينصب على سنام البعير فيشكل غرفة صغيرة تستظل بها ربات الخدور من الهاجرة، وكان الهودج يشاهد في بغداد في كهاوي عكيل ثم انقرض قالوا:

جتي الكجاوة من بعيد ومبركعه بخام الجديد

٣٩ـ الكروان: هو ركب المسافرين على الدواب وكانت في بغداد عدة أماكن لهذا الغرض منها محلة المجارية في الرصافة ومركب الحميد في الكرخ، سوق الجديد، وكان هذا اسوق خانات قديمة ازيلت فبني على انفاقها سوق عرف بالجديد، ولم يعد للكروان وجود بعد انتشار وسائل النقل الحديثة.

٤٠ ـ كسار الخشب: اختفى هو وساطوره وفأسه ولا أثر له اليوم، كان يتجول في الدروب صائحاً بصوته الاجش (كسار خشب.. كسار خشب) فيخرج هذا أو ذاك إليه يكسر لهم ما يريدون من الخشب الضخم المتراكم لديهم، فهذا للتنور وذاك للمنقلة، وآخر للطبخ، وفيه قالوا:

كسار الخشب وين الطبر وينه؟

وكان لهم ملتقى عند شريعة القمرية وسوق الجديد والسجة.

٤١ـ اللالة: وله دور المربي، يجمع الصبيان ويأخذهم إلى أماكن قريبة في الهواء الطلق ويعيدهم إلى ذويهم لقاء مشاهدة بسيطة اضافة إلى مشاركته إياهم بأكلهم ومتاعهم، وفي الرصافة دربونة عرفت بدربونة اللالات. منهم لالة حمادي ولالة ابراهيم ولالة هراتي، وفي الاستفهام الانكاري قالوا:

شتريد اصير لك لالة!

٣٢ـ اللمبجي: كان دوره تنظيف الفوانيس وتعبئتها بالنفط وايقادها أول حلول الظلام ومتابعة ادامتها لقاء اجر يتسلمه من امانة العاصمة، وكان الصبيان العابثون يعمدون إلى اطفائها احياناً ليعود إلى ايقادها، واقدم من الفوانيس كانت تستخدم السرج وفيها قالوا:

لو بسراجين، لو بالظلمة، وجاءت الاغنية لتقول:

فانوسكم ع الدرب هو العمى عيوني.

٤٣ ـ الماشطة: وهي امرأة تقوم على تصنيع العروس وتزيينها وتكون ذكية لبقة شاطرة لذلك فهي تحاول استرضاء اهل العروس وكسب ود أهل العريس، وفي ذلك قالوا:

يطلع ويا الماشطة، ويطب ويا ام العروس وهو الشخص حين يكون انتهازياً للفرص مستفيداً من كافة الظروف وجميع الاطراف.

٤٤ـ المدار: وهو قطعتان من صخر اسمر تعلو الواحدة على الاخرى فتدور الفوقانية على التي تحتها وتكون هذه ثابتة ويقوم بعملية ادارتها حمار معصوب العين، فيلقى بالحبوب بين الصخرتين فيجري طحنها، وآخر مدار كان منصوباً في بيت المرحوم (محمد سعيد افندي) في طرف الزيبك وهو البيت الذي آل إلى المرحوم فاضل ثم إلى ولده حسون صاحب مقهى البيروتي. يقولون في الحائر الذي شرد فكره فلا يعرف أين يتوجه:

صاير مثل زمال المدار، يدور يدور وهو بمكانه.

٤٥ـ المشعلجي: وهو الوقاد القائم على اشعال النار في آتون الحمام بما يتجمع لديه من خرق وازبال وفضلات، ولقد اختفى اثره بعد استخدام الوقود الحديثة في الحمامات.

٤٦ـ الملا: وهو فقيه الكتاب يعلم الصبيان قراءة القرآن الكريم، وربما دعي إلى البيوت للالتزام بختمه على روح هذا وذاك لقاء اجر معين، ويساعده في ادارة الكتاب (الخلفة) ومن الملالي من يدعى للتعزيم وطرد الشرور وكتابة الحجب وتعويذ الصغار من الفزة والكبار من الوسواس الخناس. واشتهرت في بغداد من اغاني الاطفال انشودة (طلعت الشميسة على قبر عيشة) ففيها وصف لحياة الصناع في الملا والملا يتضايق من بعض صناعه فيقول (كل مُلا، عنده عله) وفيه قالوا:

كل يوم يا ملا وجهك اصفر، ولكن الاهل يقولون لابنهم حين يشكو من قسوة ملائه: يا بني ان عصا الملا من اشجار الجنة.

٤٧ـ المجد: كان التمجيد يقع قبل اذان العشاء من يوم الخميس وقبل اذان الظهر من يوم الجمعة، وكان هناك تمجيد آخر وذلك عند الاعلان عن وفاة شخص حيث يدعى المجد إلى الجامع أو إلى سطح بيت المتوفى فيتجمع الناس على صوته، وآخر المجدين الذين ادركناهم المرحوم الملا مجيد ابراهيم والمرحوم مرعي السامرائي الأول في صندل والثاني في حنان.

٤٨ـ النخاس: وهو بائع العبيد، كان يعرضهم للبيع في بيته وهم ما بين ذكور وأناث يجلبون من بلاد السودان حسب تسمية البغداديين وكان آخر بيت للنخاسة هو الذي ذكرناه في فقرة سابقة (بيت محمد سعيد افندي) وما زال قائماً وقد تساقطت بعض اركانه، وقد انتهى دور النخاسة لأن الاسلام شرع التحرير والعتق ولم يشرع الرق.

٤٩ـ النكار: ما زالت تلك الدربونة في الكرخ تعرف باسم بيت النكار وهم من السادة الوافدين من مدينة حماه، تعاطى جدهم السيد احمد النكار هذه المهنة واستمر عليها ردحاً من الزمن ومثله السيد يحيى الهاشمي وكان عمله ينصب على إعادة تخريم وجه الرحاة التي تآكلت بفعل الطحن المستمر ـ ومنهم من كان يعمل ذلك قربة لله تعالى.

الوتي: لم تكن له صورة إلا في اذهان الناس ومخيلاتهم فهو الذي يمهد للص ويمكنه من الطريق ويعرف خبايا البيوت وخفاياها ويدل اللصوص على الذخائر والكنوز فيها، قالوا فيه:

الزم الوتي وخلي الحرامي

لو ما الوتي الحرامي ما باك

وبهذا القدر اليسير نختتم هذه الصور التي اختفت من على الخارطة البغدادية وبإمكان الكتاب التراثيين تدوين ما لديهم حولها لتكون سجلاً فولكلورياً للاجيال القادمة، به يعرفون كيف كانت بغداد قبل مائة عام أو تزيد، وبه يعرفون كيف حلت الحضارة محل التخلف ليكون لهم من وراء ذلك سبيل لدراسة خلفية البيئة البغدادية في بساطتها وصورها المختفية في ذاكرة الاجيال.

كلمة المحرر

تدوين التاريخ الشعبي

ارتبط التاريخ بالتراث الرسمي والشعبي ارتباطاً وثيقاً فرضته صورتان، الصورة الرسمية المدونة والصورة الشعبية التي تتناقل الاحداث شفاهاً منذ ان كانت الدولة وكانت قبلها لغة التداول المحكية.

ولا بد بعد مرور هذه السنوات على قيام دولة عراقية حديثة من تدوين الاحداث والتقاليد الشعبية والعادات واسبابها لا بإعتبارها فولكلوراً فقط بل بإعتبارها (احداثاً) تاريخية واجتماعية تستحق التدوين والتدقيق والملاحقة العلمية. ومن اجل ذلك لابد من ان تتضافر جهود المؤسسات الرسمية والجمعيات الثقافية لتنظيم برنامج خاص لتدريب الراغبين في تدوين الاحداث التاريخية شعبياً وفي توصيف العادات والتقاليد وتدوين ما اودعته ذاكرة الشيوخ منها.

لقد استعانت دولة الامارات بخبرة العالمة العراقية الدكتورة بروين عارف في هذا العمل الحيوي حيث اشرفت على تدريب دورات الهواة ولدينا داخل العراق عدد لا يستهان به من الشخصيات العاملة في حقول التاريخ وعلم الاجتماع وعلم التراث الشعبي ويستطيع كل هؤلاء وضع خطط كفيلة بإنجاز مشروع التوثيق التاريخي الشعبي بنجاح.. فقط ان نبدأ بالخطوة الاولى.. فقط.

المحرر

اخلاق العامة من الناس آنذاك

عادل العامل

يمثل الآباء احدى السمات الانسانية الرفيعة الدالة على شرف الاصل وكرم النفس وترفعها عن الدناءة والتفاهة والاستخذاء.

ونحن لا نريد بهذه السمة ذلك الموقف الشجاع المعروف عن احرار العرب وفرسانها في مواجهاتهم الساخنة مع الظلمة والطغاة، والذي اصبح مضرب الامثال وصفة شائعة عن العربي عموماً، كموقف الشاعر العربي الجاهلي عمرو بن كلثوم الذي اطاح برأس الملك عمرو بن هند لإهانته ام الشاعر الفارس.

فنحن نريد بذلك هنا الاعتزاز بالنفس لدى البسطاء والكادحين من عامة الناس، الذي كثيراً ما ادهش رواة الاخبار من ندماء الملوك والامراء وكأنه حالة استثنائية غريبة على مثل هؤلاء الناس المستضعفين الذين يلصق بهم كل ما هو رديء من الصفات والاخبار.

وهكذا نسب الخياطون، في احاديث هؤلاء الرواة الى السرقة، والحاكة الى الحمق، والمعلمون الى الجنون، والصناع الى الكذب، والسماكون الى السفالة، كما وصف الاعراب باللصوصية والكفر، واهل الجبل بالجفاء!

وقد تناسى مثل هؤلاء الرواة وسكنة القصور الحديث الشريف: (ان الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغني بها عن الناس، ويبغض العبد يتعلم العلم يتخذه مهنة)، وقول عمر بن الخطاب : (اني لأرى الرجل فيعجبني فأقول: هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني)!

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)، انهم حدادون وخرازون، كان احدهم اذا رفع المطرقة، او غرز الاشفى، فسمع الاذان لم يخرج الاشفى من الغرز، ولم يضرب بالمطرقة ورمى بها، وقام الى الصلاة!

فأين هذا التقى من عبث الملوك وتهتك الطغاة وفساد اهل التبطل من ابناء الثراء الذي غالباً ما كان ماله ثمرة حراماً للاستغلال والظلم والرشوة والتذلل لأصحاب السلطة والنفوذ؟!

لقد كانت العرب تهتز طرباً واعجاباً لمواقف الاباء وعزة النفس لدى العامة من الناس، فحتى الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو الذي لا يمثل من العرب الا ما هو رديء فيها، والذي قاله فيه الامام الحسن البصري: (لو جاءت كل امة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم)، لم يكن يملك الا ادعاء الاستحسان والاعجاب لمواقف الانفة والاباء!

وكانت العرب تضرب المثل لهذه المواقف المترفعة عن التذلل وابتذال ماء الوجه في طلب العيش، مثلاً، بقولها: (تجوع الحرة ولا تأكل بثديها) وبقول حسان بن ثابت:

اصون عرضي بمالي، لا ادنسه

لا بارك الله بعد العرض في المالِ

احتال للمال، ان اودى، فأكسبه

ولست للعرض، ان اودى، بمحتال

وحدث الاصمعي قال: مررت بكناسٍ بالبصرة يكنس كنيفاً ويغني:

اضاعوني، وايّ فتى اضاعوا

ليوم كريهةٍ وسداد ثغرٍ

فقلت له - وكنت حديث السن فأردت العبث به:

(اما سداد الكنيف فأنت مضطلع به، اما الثغر فلا علم لي بك كيف انت فيه) ! فأعرض عني ملياً، ثم اقبل عليّ متمثلاً:

واكرم نفسي انني ان اهنتها

وحقك، لم تكرم على احد بعدي

قال: فقلت له: (والله ما يكون من الهوان شيء اكثر مما بذلتها له، فبأي شيء اكرمتها؟) فقال : (بلى! والله ان من الهوان لشراً مما انا فيه).

فقلت: (وما هو؟) فقال: (الحاجة اليك والى امثالك من الناس)! فإنصرفت عنه اخزى الناس!

ستديو ثقافة شعبية

نجار صناديق خشبية منقوشة كانت تستعملها الاسر في العراق والخليج العربي وتسمى (النضد).

كأس من الفخار الرقيق مصور عليه مشاهد من شاهنامة الشاعر الفارسي الفردوسي

بيروت في القرن التاسع عشر

مكتبة

عفيفة

تأليف عبد المجيد لطفي

خواطر في فنون الموسيقى والمسرح والادب تغطي صورة من حياة الفنانة عفيفة اسكندر كتبها القاص لطفي على هيئة كتيب يغطي مرحلة من مراحل الابداع في العراق - صدر عام ١٩٥٣.

الصيد بالصقور

تأليف ديفيد رمبل - كريستيان غروي

ترجمة صبحي عمر

الصيد بالصقور وطيور القنص رياضة قديمة في الشرق الاسلامي وقد قدم لهذا الكتاب روجر اوبتن الذي قضى ٣٠ عاماً مسافراً ومتنقلاً مع رحلات القنص. يتألف الكتاب من نبذة تاريخية عن الصيد ثم دراسة طرائد الصيد العربية والحباري والكروان الصحراوي وبيان اسرار الصقور وطرق تدريبها والخصائص العامة لطيور الصيد - اصدار موتيف ايت للنشر - بيروت عام ٢٠٠٠.

الاحجار الكريمة

تأليف د. السيد الجميلي

دراسة تاريخية جغرافية جيولوجية بـ ١٧٠ صفحة القسم الاول منه نظرة تاريخية على الاحجار الكريمة وهو القسم الثاني على اثنين وثلاثين باباً تحدث المؤلف فيه عن الجوهر (الدر) والياقوت والزمرد والزبرجد والجزع واليصب والجشمت والمرجان.. الخ وضم الكتاب ١٦ صورة ملونة اصدار مكتبة مدبولي - القاهرة - ٢٠٠١.